٤ ـ الجمـــال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لها : إن قلبي وقلبَكِ يتجاليانِ في هذه الساعة[1] ويتباكَيانِ ؛ أتدرين ماذا يقول لكِ قلبي ؟

إنه ليقول عني : أعْـزِزْ عليَّ بأن تكوني هـهنا ، وأن تتألفَ منك هذه القصةُ التي تبدأُ بالوَصْمَة وتنتهي بالاستخذاء فتنطلقُ المرأةُ في مَتالِفها ومهاويها ليبلغَ بها القدَرُ ما هو بالغ ؛ وليس إلا الضرورةُ وسطوتُها بها ، والاذلالُ ومهانتُه لها ، والاجتماعُ وتهكّـمُه عليها ، والابتذالُ واستعبادُه إياها . ومهما يأتِ في القصة من معنًى فليس فيها معني الشرف ؛ ومهما يكن من مَوْقفٍ فليس فيها موقف الحياء ؛ ومهما يَجْـرِ من كلام فليس فيها كلمةُ الزوجة . وأعْـزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبوبَ الذي وُضع ليضيءَ ما حوله ، قد انقلب لِجعل يُحرق ما حوله ؛ وكان يتلألأ ويتوقّد ، فارتدَّ يتسعَّر ويتضرّم ويجني على ما يتصل به وسقطَ بذلك سقطةً حمراء . . . .

أفتدرين ماذا يقول لي قلبك ؟

إنه يقول عنك : يا بُؤسَنا من نساء ! لقـد وُضعنا وضعاً مقلوباً فلا تستقيم الانسانيةُ معنا أبداً ، وكل شيءٌ منقلبٌ لنا متنكّر ؛ والشـفقةُ علينا تنقلبُ من تلقاءِ نفسها تهكّماً بنا ، فنبكي من شفقة بعض الناس كما نبكي من ازدراء بعض الناس . يا بؤسَنا من نساء !

* * *

قالت : صدقت ، وكذلك تنقلب أسبابُ الحياة معنا أسباباً للمرض والموت ، فاليَـقَظةُ ليس لها عنـدنا النهار بل الليل ، والصَّحوُ لا يكون فينا بالوعْي بل بالسُّكر ، والراحةُ لا تكون لنا في السكونِ والانفراد بل في الاجتماع والتبـذّل ؛ وما يردُّ العيشَ على امرأة من واجباتها السهرُ ، والسكرةُ والعربدةُ ، والتبذلُ ، وتَدريبُ الطباع بالوقاحة ، وتَضْرِيَةُ النفس على الاستهواء والتصدّي بالجمال للكَسْب من رذائل الفُسَّاق وأمراضِهم ، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليبَ آخرُها الهوان والمذلة ، واستماحتهم بأساليب أولها الخداعُ والمكر ؟

إن حياةً هذه هي واجباتُها ، لا يكون البكاءُ والهمُّ إلا من طبيعة من يحياها ، وكثيراً ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقاً تهارَبُ فيها معاني البكاء ؛ فاذا أثقلَنا الهمُّ وجلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّف السرور ، ختلْنا العقل نفسَه بالخمر ؛ فما تسكر المرأةُ منا للسكر أو النشوة ، بل للنسـيان ، وللقدرة على المَرَح والضحك ، ولأمدادِ محاسنها بالأخلاق الفاجرة من الطيش والخلاعة والسَّفَه وهذَيان الجمـال الذي هو شعرُه البليغ . . . . عند بلغاء الفُسَّاق

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضرُ الغادة منكن هو الشباب والصِّبي والجمال وإقبالُ العيش ، فكيف بها فيما تستقبل ؟

قالت : إن المستقبل هو أخوفُ ما نخافه على أنفسنا ، وليس من امرأةٍ في هذه الصناعة إلا وهي معدةٌ لمستقبلها إما نوعاً من الانتحار ، وإما ضرباً من ضُروب الاحتمال للذل والخسف . وليس مستقبلنا هـذا إلا كمستقبل الثمار النضيرة إذا بقيت بعد أوانها ، فهو الأيام العَفِنة بطبيعة ما مضى . . بلى إن مستقبل المرأة البغيّ هو عقاب الشر

* * *

قال (ح) : هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات ؛ فالمرأةُ منهن قد تتبرّم بزوجها وتضْجَر وتنمّ ، وتزعم أنها معذَّبة فتَتسخّط الحياة ، وتندُب نفسها ؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحد برجل واحد تألفه فتعتادُه فتُرزَقُ من اعتياده الصبرَ عليه فيسكنُ بهذا نِفارُها . وتلك نعمةٌ واجبها أن تحمدَ الله عليها ما دام في النساء مثلُ الشَّهيدات تتعذبُ الواحدةُ منهن فنوناً من العذاب بمائة رجل وبألف رجل ، وهم مع ذلك يتبلُّون روحَها بعدمهم من الذنوب والآثام

وقد تستثقل الزوجة واجباتها بين الزوج والنسل والدار ، فتغتاظ وتشكو من هذه الرَّجرَجة اليومية في الحياة ، ثم لا تعلم أن نساءً غيرها قد انقلبت بهن الحياةُ في مثل الخسْف بالأرض وقد تجزع للمستقبل وتنسى أنها في أمانِ شرفها ، ثم

(١) أي يتكاشفان ويجلو كلاما للآخر ويوضح

لا تعلم أن نساءً يترقّبن هذا الآتي كما يترقب المجرمُ غَدَ الجريمة من يوم فيه الشُرطةُ والنيابة والمحكمة وما وراء هذا كله

فقلتُ : وهناك حقيقة أخرى فيها العزاءُ كلُّ العزاء للزوجات ، وهى أن الزوجة امرأةٌ شاعرة بوجود ذاتها ، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها

والزوجة امرأة تجد الأشياءَ التى تتوزَّعُ حبَّها وحنانَ قلبها ، فلا يزال قلبُها إنسانياً على طبيعته ، يفيض بالحب ويستمدُّ من الحب . والأخرى لا تجد من هذا شيئاً ، فتنقلب وحشيةَ القلب ، يفيض قلبها برذائل ويستمدُّ من رذائل ، إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعةُ ليتعلقَ به من الزوج والدار والنسل

والزوجة امرأة هى امرأة خالصة الانسانية ، أما الأخرى فمن امرأة ومن حيوان ومن مادة مهلكة

وتمامُ السعادة أن النسلَ لا يكون طبيعياً مستقيراً فى قانونه إلا للزوجات وحدهن ، فهو نعمتُهن الكبرى ، وثواب مستقبلهن وماضيهن ، وبَرَكتهن على الدنيا ؛ ومهما تكن الزوجة شقيةً بزوجها فان زوجها قد أولدها سعادتها ، وهذه وحدها مزية ونعمة . أما أولئك فليس لهن عاقبة [1] إذ النسلُ قلبٌ لحالتهن كلها ؛ وهو غِنيٌّ إنسانيٌّ ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ، وهو رحمة ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعة فى موضع حب الولد الجديد من قلوبهن ، حبَّ الرجل الجديد ، فكانت هذه نقمةً أخرى

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثانى بعد الأول ، أو الثالث بعد الثانى ، أو الرابع بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديدُ عليهن هو الواحدَ بعد الواحد إلى آخر العدد ؛ ولكنه الرجلُ الذى يكون وحده بالعدد جميعاً إذ هو عندهن يشبه الزوجَ فى الاختصاص وفى شرف الحب ، فهو الحبيب الشريف الذى تتعلّقه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة ؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدته منهن لا تجده إلا لتعانى ألم فقده

يا عجبا ! كل شىء فى الحياة يُلقى شيئاً من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعة كلَّها تَرجُمهن بالحجارة . .

قالت هى : وليست الحجارةُ هى الحجارةَ فقط ، بل منها ألفاظ تُرجَم بها المسكينةُ كألفاظك هذه ... وكتسمية الناس لها « بالساقطة » فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر

* * *

ثم تنهدتْ وقالت : مَن عسى يعرف خَطَرَ الأُسرة والنسل والفضيلة كما تعرفها المرأة التى فقدتها ؟ إننا نُحسُّها بطبيعة المرأة ، ثم بالحنين إليها ، ثم بالحسرةِ على فقدها ، ثم برؤيتها فى غيرنا ، نعرفها أربعةَ أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجةُ نوعاً واحداً . ولكن هل ينصفنا الرجالُ وهم يتدافعوننا ؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا ؟

قلت : ولكنَّ الأُسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحُمرة خديها ، بل على أخلاقها وطباعها . فهذا هو السبب فى بقاء المرأة حيث ارتطمت . وهى متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل

ومن ثَمَّ كانت الزَّلةُ الأولى ممتدةً مُتَسَحِّبةً إلى الآخر ، إذ الفتاة ليست شخصاً إلا فى اعتبارها هى ، أما فى اعتبار غيرها فهى تاريخٌ للنسل إن وقعت فيه غلطة فسد كلُّه وكَذَبَ كله فلا يُوثق به

وهذه الزلة الأولى هى بدءُ الانهيار فى طباع رقيقةٍ متداخلةٍ متساندةٍ لا يُقيمها إلا تماسُكُها جملةً ، وما لم يتماسكْ إلا بجملته فأولُ السقوط فيه هو استمرارُ السقوط فيه . ولهذا لا يعرف الناسُ جريمةً واحدةً تُعد سلسلةَ جرائم لا تنتهى إلا سقطةَ المرأة . فهى جريمة مجنونة كالاعصار الثائر يلفُّ لفاً ، إذ تتناول المرأةَ فى ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترمى إلى مستقبلها ونسلها ، فَيَهْتِكُها الناسُ هى وسائرَ أهلها ، من جاءت منهم ومن جاءوا منها

والمرأة التى لا يحميها الشرف لا يحميها شىء . وكل شريفة تعرف أن لها حياتين : إحداها العفة ، وكما تدافع عن حياتها الهلاكَ ، تدافعُ السقوطَ عن عفتها ، إذ هو هلاكُ حقيقتها الاجتماعية . وكل عاقلةٍ تعرف أن لها عقلين تحتمى بأحدهما من

(١) يقال ليس له عاقبة أى ليس له نسل وعقب

نَزَوات الآخر ، وما عقلُها الثانى إلا شرفُ عِرضها

* * *

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هى الحقيقة ، فما تسامح الرجالُ فى شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عِفُّوا تعفَّ نساؤكم » فان عفافَ المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ما لم تهيَّأ لها الوسائلُ والأحوالُ التى تعين نفسَها على ذلك . وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها ، تشدُّد الرجال فى قانون العِرض والشرف

فاذا تَراخى الرجالُ ضعفت الوسائل ، ومن بين هذا التراخى وهذا الضعف تنبثق حريةُ المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر على ما تكون أحوالُها وأسبابُها فى الحياة .. وهذه الحريةُ فى المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغضُوا ويتسمَّحوا ، فتهافتَ النساءُ عندهم تنالُ كل منهن حكمَ قلبها ويخضع الرجل . . . .

على أن هذا الذى يسميه القومُ حريةَ المرأة ليس حريةً إلا فى التسمية ، أما فى المعنى فهو كما ترى :

إما شرودُ المرأة فى التماس الرزق حين لم تجد الزوجَ الذى يَعولُها أو يكفيها ويقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثل هذه هى حرة حريةَ النكد فى عيشها ، وليس بها الحرية بل هى مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة

وإما انطلاقُ المرأة فى عَبثاتها وشهواتها مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع فى الرجال ، بمقدار مايشتريه المال ، أو تعين عليه القوة ، أو يسَوِّغُه الطيش ، أو يجلبه التهتك ، أو تدعو إليه الفنون . فمثل هذه هى حرة حريةَ سقوطها وما بها الحرية بل يستعبدها التمتع

والثالثة حريةُ المرأة فى انسلاخها من الدين وفضائله ، فان هذه المدنية قد نسخت حرامَ الأديان وحلالَها بحرامٍ قانونىٍّ وحلالٍ قانونى ، فلا مَسْقطةَ للمرأة ولاغضاضةَ عليها قانوناً ... فيما كان يعدُّ من قبلُ خِزياً أقبحَ الخزى وعاراً أشدَّ العار ، فمثل هذه هى حرة حريةَ فسادها ، وليس بها الحرية ولكن تستعبدها الفوضى

والرابعة غطرســةُ المرأة المتعلمة وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً ، فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكون الزوجَ الناعمَ كقفَّاز الحرير فى يدها ، ولا الزوجَ المؤنث الذى يقول لها نحن امرأتان . . . . فهى من أجل ذلك مُطلَّقةٌ مُخلَّاةٌ كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمرة . فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزَيغها ، وهى مستبدة لهوسها وشذوذها وضلالها

حريةُ المرأة فى هذه المدنية أوّلها ما شئتَ من أوصافٍ وأسماء ، ولكن آخرها دائماً إما ضياعُ المرأة وإما فساد المرأة

والدليل على التواء الطبيعة فى المدنية استواءُ الطبيعة فى البادية ، فالرجال هناك قوّامون على النساء ، والنساءُ بهذا قوامات على أنفسهن ، إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يفورُ دماً [١] وبهذه الوحشية يقررون شرفَ العِرض فى الطبيعة الانسانية ويجعلونه فيها كالغريزة ، فيحاجزُون بين الرجال والنساء أولَ شىء بالضمير الشريف الذى يجد وسائله قائمةً من حوله

* * *

قال الراوى : وغطت وجهها بيديها وقالت : إنك لا تزال ترجم بالحجارة . . . إن فيك متوحشاً

قلت بل متوحشة . . .

إنكِ أنتِ قد تكلمت فىَّ ، فجمالك الذى يضع الانسان فى ساعة مجنونة ليتمه بطيشها ، فقد وضعنا نحن فى ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلت جمالك ، فقد قلت وحيك ، إذ لا جمال عندى إلا ما فيه وحى

أما قلت : إنك لو خُيِّرتِ فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلاً نابغةً يكتب ويفكر ويتلق الوحىَ من الوجوه الجميلة ؟

(١) إلى ج . س . برسين (تركيا) . إذا كان حب الفتاة أكبر من حاضرها فلن يكون أكبر من زمنها الآتى كله ، فان كانت (تلك) قد نشأت على الفقر وتعلمت من فقرها الرضى ، ومارست الاحتمال وتعلمت من احتمالها الصبر ، فلتتخذ منهما لحبيبها الفقير سيكون جمالا وسرورا لفقرها ويكون معها كأنه سعادة من الغنى . أما إن كانت نشأتها فى الترف ولها أخلاق النعمة ، فان حبيبها الفقير سيكون لها ما جميلا ، ثم يقل فيكون ما ثقيلا ، ثم يقل فيكون فقراً صرفا ، وتذهب الأوهام ، وتأتى الحقائق ، ويومئذ تكون ذبابة لتحمل الحب وتطير به من دارها . . . .

(الرافعى)